

"الخمينية" : من تقديس الخطاب إلى تقديس الشخص

ورثنا نحن الشيعة كل علل التاريخ وأمراضه ، وهذا ليس معناه أن بقية الفرق والمذاهب منه براء ، أو لا يمتون إلى أمراضه بصلة . على الإطلاق ، فالتاريخ الإسلامي طل تاريخا يعيد نفسه ويكررها بالنسق ذاته ، وبالأخطاء ذاتها ، وبالعصبيات التي تصنع الأحداث ، وتقيم الدول وتسقطها . لكن منذ مجيء "الخمينية" تحول التقديس الشيعي للمرجعيات من الخطاب إلى الشخص ، وهذه الطاهرة واحدة من هذه العلل وأمراضه الكثيرة .

ما المقصود بهذا الكلام ، وما بيان توضيحه ؟

كان الفرد الشيعي ملزماً أن يقلّد أحد المرارع الكبار في حياته ، ويرجع له في المسائل التي تتعلق بالقضايا الفقهية والتشريعية من واجبات ومحرمات ومواريث إلى آخره من المسائل التي تواجه الفرد في حياته الدينية .

هذا التقليد الراسخ في الأوساط الشيعية أوجد مكانة مقدسة للعالم المرجع ، ووضعه موضوع الاحترام والتجليل ، خصوصاً وأنه ينوب عن الإمام الغائب (المهدي المنتظر) ويقوم مقامه في تحصيل الحقوق والأحکام ونشر علوم الأئمة . وبخلاف المؤسسات الدينية السنوية كالأزهر أو الزيتونة التي لم تكن مستقلة عن الدولة ، كانت الحوزات الدينية تتمتع باستقلالية بمواردها المالية من أوقاف وأحکام عن موارد الدولة .

لذلك كان علماء الحوزات ومراجعها الكبار مؤثرين وكلماتهم كانت مسموعة سواء كان ذلك في الشأن الديني أو الاجتماعي أو حتى السياسي ، ولا أريد في هذا المقام الاستشهاد بحالات من التاريخ ، يكفي الرجوع إلى تاريخ مرعية السيد محسن الحكيم في العراق : ليتضح الأمر وتبان الفكرة .

ما يهمني توضيحه هنا أن حالة التقديس في ارتباطها بالعلماء المرارع لها ارتباط وثيق بقدسية الأئمة ومنزلتهم في التراث الشيعي ، وكون هؤلاء المرارع أيضاً في نظر المقلدين لهم أنهم امتداد متين يتصل بتراث الأئمة ، وبكونهم حاملين وناشرين لعلومهم .

رغم هذه الظاهرة غير أنهم كانوا حذرين أن يضعوا أنفسهم موضع الإمام الغائب ومنزلته . لذلك طلت بعض المهام بالنسبة لهم منوطه بخروج الإمام موطه وظهوره ومنها قيام الدولة الشيعية وظهورها على يديه ، وما عقيدة الانتظار أو فلسفته عند بعضهم سوى إشارة إلى ذلك .

لكن بمجرد ولادة الفقيه فقد انكسر هذا الحذر على يديها ، ومن ثم استولت على مهام الإمام كلها ، وسمحت لنفسها أن تستولي على السلطة السياسية باسم الإمام الغائب عن طريق تقاليد المرجعية التاريخي للحوزات وبالتالي لها .

وهنا نصل إلى لب الأزمة التي طال المرجعية ذاتها في لحظتها الراهنة ، وذلك من جهتين : فمن جهة أولى فرضت ولادة الفقيه وضعاً واقعياً وجداً المرجعية نفسها تحت المجهر الإعلامي والسياسي ، أو أن الأضواء كانت مسلطة عليها بعدها لا ترى حتى بالعين المجردة من فرط ابعادها عن الأضواء ، الأمر الذي فتح الباب ، من جراء ذلك ، على تساؤلات وإشكالات عده ، لم تكن قبل ظهور ولادة الفقيه يُلتفت لها ، أو ينظر إليها بعين الريبة

من ضمنها كيف يستطيع الفرد الشيعي أن يوفق بين متطلبات تقليده وأتباعه للمرجعية التي هي بالأساس تعيش في بلد آخر وبين متطلبات ولائه لوطنه الذي يعيش فيه ؟ ولو لا بروز الخمينية في المنطقة لما ظهر مثل هذا التساؤل على السطح ، ولما ظهر أيضاً ، لو كانت الخمينية إيديولوجية سياسية لم تتوصل المرجعية للبروز السياسي ، فالبaba مقره في روما وأتباعه في شتى بقاع العالم ، مع تحفظي الشديد في المقارنة بين عالمين مختلفين .

أما من جهة أخرى ، فقد استطاعت "الخمينية" أن تنزع قدسيّة الخطاب المتصل بالأساس باجتهاد المرجع الذي يظل اجتهاداً بشرياً في نظر مقلديه ، وبالتالي هناك حدود فاصلة بين خطابه وشخصه ، وتضع بدلاً منه قدسيّة الشخص المتماهي مع شخص الإمام نفسه ، ومن ثم تصل بهذه القدسية إلى أعلى مراتبها في شخص ولادة الفقيه .

خلاصة هذا التحليل ، في الوضع الذي آلت إليه المرجعية في علاقتها الملتبسة بولادة الفقيه ، والآثار المترتبة عليه ، هو أنه لم يجر في التاريخ الإسلامي استغلال الدين في السياسي مثلما يجري الآن على يد الخمينية ، حتى الإسلام السياسي السنوي لم يتجاوز في توظيفه للدين مدونة النصوص والخطابات فقط ، وهذا ليس تفاصلاً . لكن لأبيّن مدى خطورة ما يجري في المنطقة على أيدي هؤلاء .